الأندلس في المغرب

عيسى الناعوري

في عام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد الله كَنّون ، وكان بيننا حديث على الاندلس ، وعلى روائع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن ان هذه الفنون قد جمدت على ما خلّفه عرب الاندلس في اسبانيا . غير ان الاستاذ كنّون اكّد لي ان هذه الفنون لم تَجمُد ، بل هي تعيش الآن وتتطوّر في المغرب بازهى واعمق مما هي في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحَسِبتُ انه من قبيل المفاخرة الوطنية .

ثم اتيح لي ان ازور المغرب عام ١٩٧٤ بحثًا عن اثر الفنون الاندلسية هناك : من طراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومن فناء وموسيقى ورقص . وقد قضيتُ في تلك الزيارة واحدًا وعشرين يوما ، وتجوَّلتُ في المدن الرئيسية : من طنجة غربًا ، الى وَجْدة شرقًا ، والى مراكش جنوبًا ، وبينهما زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفاس ، وتطوان . وفي كل مدينة قضيتُ يومين او اكثر ، ازور القصور ، والمساجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمدارس القديمة ، والاسوار والقصبات . وذهلتُ فعلا وانا اعيش جوَّ الاندلس من جديد ، ولكن بشكل احدث واكثر تطوّرًا واشدّ روعة .

كنت قبل زيارة المغرب أحسَبُ ان فنون الزخرفة الاندلسيّة قد دخلت الى الاندلس من المغرب ، مع الفتح الاسلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تيقّنتُ بعد زيارة المغرب من ان هذه الفنون المدهشة انما دخلت الى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوها معهم من دمشق ، بعد ان كانت دمشق قد اخذتها عن القاشاني الفارسي ، ومن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَـعٍ دمشقيّ خاص . ثـم تطوَّرتْ في إسبانيا مع الأيام ، ولـم تدخل الى المغرب الا في عهـد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميـلادي ، الخامس الهجري ، بعـد ان ضَمَّ يوسف بـن تاشفين الاندلس الـى المغرب ، فاصبح البَلَدانِ بلـدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنـونَ الاندلسيَّة منذ ذلك الحـين . وحين خرج العرب من الاندلس في القـرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلدان المغرب ، حملوا معهم فنونهـم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومـذ ذاك راحت تتطوَّر مـع الزمن الى يومنا هـذا .

والواقع ان الذي يريـد دراسة الفنون الاندلسيـة كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُـدَّ له من زيارة المغـرب ، والتجوّل في مختلف مُدنـه ؛ فالاندلس تعيش هنـاك بأجمل ما في فنونهـا الرفيعـة الخالـدة .

وفي مـا يلي أُدوِّن ما شاهدتُه وأُعجِبْتُ بـه في عدد من اهمّ المـدن المغربيـة مع شيء مما لا بـدّ منه من الربط التاريخي :

— ١ —
سَبْتَــة وطَنجــة

في الزاوية الشمــاليــة الغربية من المملكة المغربية ومــن القارة الافريقية ، وعلى شـاطيء البحــر المحيط والبحر المتوســط معا ، تقوم مدينة طنجــة ، وعلى مسافة قريبة منهــا الى الشرق تقع مدينة سَبْتَــة ايضا . وبين المدينتــين العريقتين ينتصب شامخًا جبــل موسى ــ نسبة الى موسى بــن نصير ــ ويقابله على العُدْوة الاسبانيــة ، شامخًا متغطرسا ، جبــل طارق . وكان هٰذان الجبلان والجبــالُ العالية المتقابلة بينهما ، ومِــن حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقــل) . وهي تتقابل متمرِّدَةً على جانبيْ مــا كان يُدعى مِن قَبْلُ (بحر الزقاق) او (بحر المجاز) ، ويُدعَى اليوم (مضيق جبــل طارق) . وانمــا كانت تسميته بالزقاق او المجاز لضيقه ، فهــو ضَيِّقٌ صغير ، لا تزيد ابعــدُ مسافة فيه بــين العدوتين عن ثلاثــة عشر كيلو متــرا .

امــا تسمية الجبال المتقابلة الجبّارة باســم (اعمدة هرقل) فلها اسطورة قديمة،تقــول إنَّ الارض كانت مُتَّصلة بين المغــرب واسبانيا ، وكانت تَفصِل بين ميــاه الاطلنطي والمتوسّط . ثــم تَزَوَّجَ هرقل ، وجاء بزوجته الى طنجــة . ولئلاَّ يتمكّن احدٌ من الوصول اليهــا وسَلْبِه اياها ، شَقَّ الارض بين القارّتين ، وانشــا بينهما الزقاق المائي ، واوصلَ الماءَ بالمــاء ، واقام الجبال الشاهقة حارســة على طرفي المجاز ، فدُعِيَت هذه الجبالُ المــارِدة بأسم (اعمدة هرقــل) .

وفي طنجة مغارة هائلــة على البحر تُدعــى (مغارة هرقل) حَفَرتْها امواجُ البحر القويّــة التي ظلّت تضرب اطراف الجبال قرونا لا حصر لها .

ويقف المــرء على شاطيء طنجة وسبتة ، فــيرى البواخر والقوارب تَمخَر البحر غاديــةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُــدُن (قادس ، وطريفة ، والجزيرة الخضراء ، وجبــل طارق ، ومالقة) على العُــدْوة الاسبانية . وحين يقف علــى سفح جبل موسى ، بــين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحر الزقاق ، يُروعُه شموخُ صخرة جبل طارق ، كأنما انشقَّ عنها البحر ، فتمرَّدت شامخةً فوق تيجانِ الغيوم المتصاعدة من البحر .

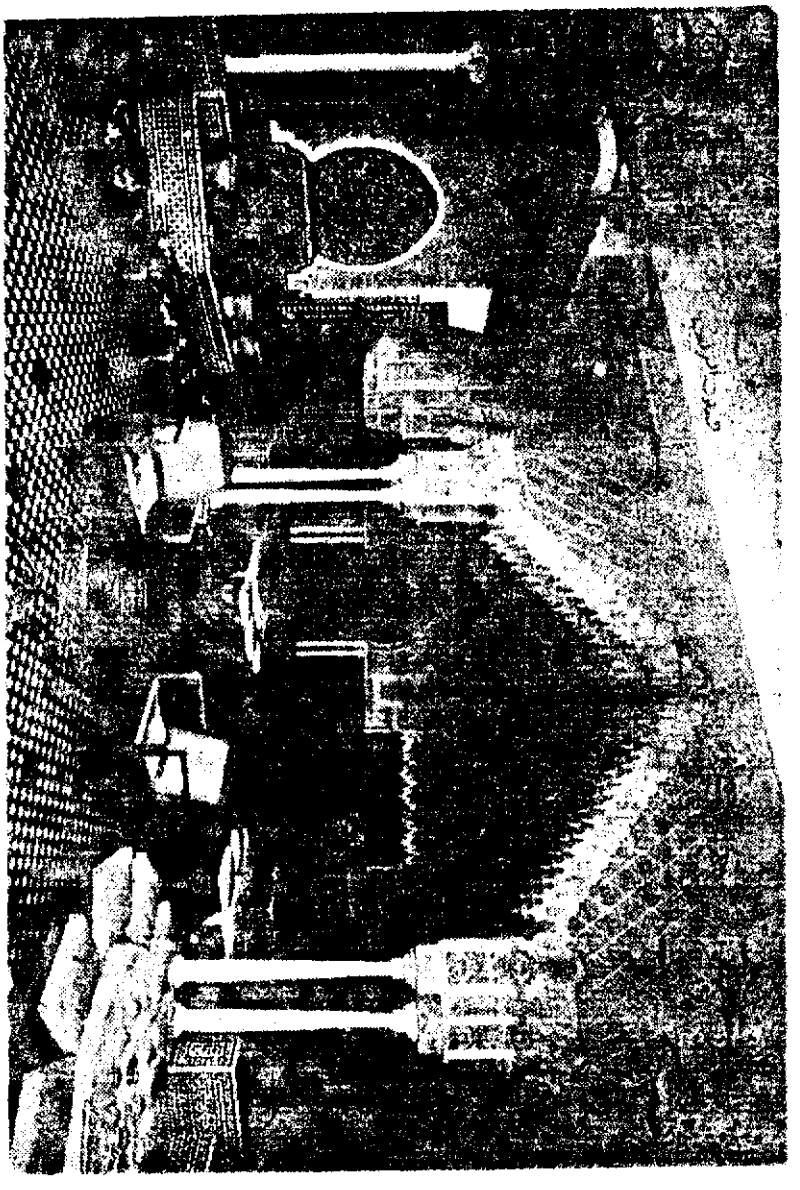

داخل فندق الريف في طنجة

من هذه البقعة انطلقت جيوش الفتح العربي الاسلامي لفتح بلاد اسبانيا ، مبتدئةً عام ٩١ هـ. ، ٧٠٩ م. وكانت هذه البقعة قبل الفتح الاسلامي للمغرب وخلال مُدَّةٍ من بدايته ، ذاتُ صلة متينة باسبانيا ، فقد كانت سبتة في عهد عقبة بن نافع ، ثم موسى بن

نصير من بعده ، في ايـدي الاسبان ، وكان يحكمها بوليان ، الـذي تعاون مع العرب على غـزو اسبانيا لانقاذها من حكـم عَدُوّه لذريق ، ومهّـدَ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبتةُ اليـوم يحكمها الاسبان ، وكانوا الى عـام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربـيَّ كلّه ، وجزءًا من الشاطىء الغربي ، في حين كـان الفرنسيون يحكمون بقيّة المغـرب .

وظلّت سبتـة وطنجة مَعْبَرًا طبيعيًّا بـين المغرب والاندلس ، مثلما هما اليوم المَعْبَرُ بـين البلدين : منهما عَبَرت سرايـا طريف بن مالك ، للاستكشاف أولا ، عـام ٩١ هـ. وعادت بالغنائم الوفـيرة ، وببشائر سهولة الفتح . ثـم عَبَرت بعدها جيوش طارق بـن زياد سنة ٩٢ هـ. وتوغّلت في الجنـوب الاسباني والغرب ؛ ثـم تلتها جيوش موسى بن نصير سنـة ٩٣ هـ. لاستكمال فتح اسبانيـا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة أيضا كـان الأمويّون يدخلون احيانـا من الاندلس الى المغرب ، لمنـع المغاربة من التدخّل في شـؤون الأندلس . ثُمَّ من هذه البقعة عينهـا دخَلَتْ فيما بعد جيوش المرابطـين ، بقيادة يوسف بـن تاشفين ، مَرَّتَين : مرةً لانقاذ إمارات الطوائف مـن غارات الجيوش الاسبانية ، والمرّةَ الثانية لاحتلال الاندلس برمّتها وضَمّها الى المغرب . ومن هناك عادت الصلة التامّـةُ بين المغرب والأندلس ، واصبحت هـذه جُزءًا من المغـرب ، ودخَلَت فنونُ الاندلس الى المغـرب ، واتّصلَت الحضارة بين البلديـن فصارت واحدة . واستفـاد المغرب من ذلك فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمةً عليه مـن حيث العلم والثقافة ، وكان هو متقدّمًا عليها في القـوة والسلاح ، « فكـان هو يبذل للأندلس حمايته — كما يقول الاستاذ عبد اللـه كنّون في الجزء الاول مـن كتابه (النبوغ المغربي) — والاندلس تبذل لـه ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين استولى يوسف بـن تاشفين على الاندلس ، حمـلَ ملكَ إشبيلية ، المعتمدَ بـن عبّاد ، اسيرا مكبّلاً بالقيود الـى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثـم الى أغمات — في الجنوب المغربي ، قرب مراكش — حيث مـات سجينـا ذليـلا .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد اللـه كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول — الطبعة الثانية .

لقــد تأثّرت طنجة ، مثلما تأثّــر المغرب كلّه ، بحضارة الاندلس ، وظلّ هــذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العنايــة البالغة بالهندسة المعماريــة ، والزخارف والنقوش الاندلسيــة ، والمُقرّبصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشـــب ــ والمقربصات تعني (النقوش المجسّمة النافرة) وهــي ماخوذة من الكلمـــة اللاتينية (CORPUS) التي تُعني (الجســم) ؛ ويُخطىءُ من يدعوها (المقرنســـات) او (المقرنصات) ، فهي كلّهـــا مُجسَّمات نافــرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسيـــة على قطع الزّلّيج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلـــة الزاهية ، ولا سيما اللـــون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعـــة الصِناعة ، كاوراق الشجـــر حينًا ، او باشكال مربّعةٍ او مثلّثةٍ احيانـــا اخرى . وهي تُلْصَق إلصاقـــًا على الجدران ، وتُصْنَع منها صُوَرٌ واشكالٌ فنّيـــة غاية في الجمال والرهافة والدقّـــة . وقد تُغطّى بهـــا الجدران باكملها ، او قـــد يُغَطّى جزءٌ من الجدران الى عُلُوّ معيـن .

وحين تَجتمع هـــذه الزخارف الخزفيّة الـــى المُقرّبصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، او فـــي الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فتنـــةً للنظر وبهجةً للقلـــب .

هـــذا الطراز من الزخارف الزليجيـــة والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبانُ الى اليـــوم يحافظون عليه في متاحفهـــم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليـــه في المغرب اشدُّ واعظم ، واكثـــرُ اتّساعا : فقصورُ المغرب كلّها ، ومُسـاجِدُهُ ، وفنادقه ، والكثيرُ من بيوتـــه ، هي قطع روائع من الفـــنّ الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبتُ لزيـــارة الصديق عبد اللـــه كنّون في منزله في القصبة ــ وهي مدينـــة طنجة التاريخية القديمة ــ فراعني ما شاهدتُ في المنزل من جمـــال النقوش والزخارف الأندلسيـــة : من مدخل الدار ، الى بَهْوِها السفلي ، الـــى السُلّم الصاعدة الى الطابـــق الثاني ، الى ما رأيته من غـــرف المنزل ، وطراز اثاثها . كـــلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفـــراش ، والستائر ، والمقاعـــد الممدودة على الارض ، او المرتفعة علـــى مساطب مفروشـــة .

ومثل منزل عبد اللـــه كنّون ، بل اكثر زخرفة ، كـــان كذلك الفندق المعروف باســـم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آيـــاتٌ باهراتٌ من هذه النقوش والزخـــارف الاندلسية .

وتنتقل من هنـــاك لتتجوّلَ في (القصبة) المطلّـــةِ على البحر ، والمحاطةِ بالاســـوار العالية ، فتتخيّلُ انك في احـــدى قصبات الاندلس ؛ والقصبةُ كانت مِن قَبلُ مَقَـــرَّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولـــة ، وثكنات الجيش . وفي طنجة مـــا تزال القصبة يبدو عليها القـــدم ، في البيوت ، والشوارع ، الا مـــن بعض الأبنية الحديثة التي تكـــاد لا تبدو فيها . واسوارُها شبيهة باســـوارٍ كثيرة ما تزالُ قائمة في العديد من المـــدن الاندلسية . الطراز واحـــد ، والنتوآت المدبَّبَة في اعلـــى الاسوار والأبراج واحدة . ولا عجب فـــي ذلك ، فقد تعاقب على حُكْـــم الاندلس من المغاربة — من القـــرن الحادي عشر الميلادي الـــى اواخر القرن الخامس عشر — المرابطون ، والموحّدون ، والمَرينيّون ، الذيـــن في اواخر عهدهم خرج العرب نهائيـــًا من الاندلس . وكلٌّ هؤلاء تركوا آثـــارا متشابهة في الأندلس والمغـــرب معًا ، وكلُّهم شيَّدوا القلاع والحصـــون والقصبات والقصور ، وبنـــوا المساجد والاسوار ، واسّســـوا المدارس في عُدْوَتَي بحـــر الزقاق . وكثيرٌ من هذه الآثار مـــا يزال قائما الى اليوم علـــى الأَرض المغربيّـــة والأرض الاسبانيّـــة .

واما الغناء الاندلســـي والموسيقى فما يزالان يعيشـــان كذلك في طنجة ، وفي المغرب برمّتـــه.والمغاربة يدعونه باسمـــه الحقيقي : (الغناء الاندلسي) ، في حـــين يدعوه التونسيون والليبيون باســـم آخر ، هو (المـــالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغنـــاء الأندلسي باستمرار في كلّ مكان من الارض المغربيـــة ، باعتباره فنـــًا لهم فيه حِصّة ، ولهم في بقائه نصيب ؛ فهـــو لذلك بعضٌ من التراث الشعبي المغربـــي .

- ٢ -

الربـــاط

من طنجة ننحدر ـــ مع الخريطـــة الجغرافية ، لا مـــع التاريخ ـــ جنوبا ، لنصل الى مدينة الربـــاط ، عاصمة المملكة المغربيـــة اليوم ، وجارة مدينة (ســـلا) على شاطىء الاطلنطي ، لا يفصـــل بينهما غير نهر

مئذنـــة حسّان فـــي الرباط

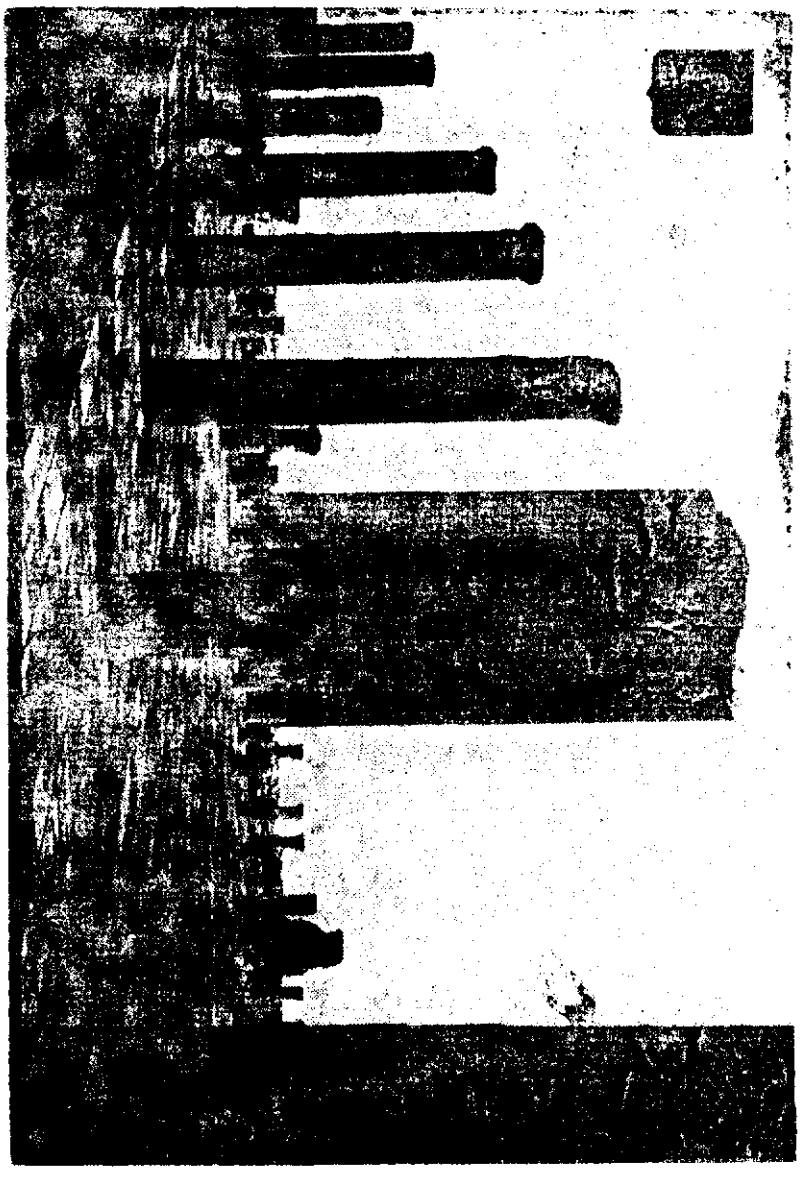

ضحل الميـــاه ، قليل العرض ، هو نهـــر (بورقراق) . وفي (سلا) تُوفّيَ الملك عبـــد المؤمن ، اول ملوك الموحّديـــن .

وقبل ان ابــدا الحديث على الرباط ، ارى ان اذكـر ان جارتها (ســلا) مدينةٌ اندلسية،بمعنى انَّ سُكّانهــا من اصل اندلسي ، نزحوا من الاندلس فعمروها ، واقامــوا يمارسون فيها اساليب حياتهــم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهــم الاندلسية ، مثلما فعــل إخوانٌ لهم خرجوا من الاندلس ، وانشــاوا مدينة تطوان ، وبعض المــدن المغربية الاخرى ؛ وكانت ســلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المــدن المغربيــة القديمــة .

ولكنّني لــن اقفَ طويلا عند مدينة ســلا ، وقد زُرْتُها وتجوّلتُ فيها ، فلم اجــد فيها من مظاهر الفنــــون الأندلسية الا القليل الذي لا يستحقّ الوقوف عنده بالنسبة الى ما شاهَدْتُه في المــدن الاخرى الكبيرة.

وامــا مدينة الرباط ، او « رباط الفتح » ، كما كــان اسمها ، فتزخر بالكثير جــــدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكــل يسترعي النظــر ، ويستوقف الزائــر للتامل والاعجاب .

هذه المدينة بناهــا سلطان الموحّدين الأشهــر يعقوب المنصور ، سنة ١١٩٨ م. ٥٩٣ هـ. وانشا فيها مسجد حَسّان وصومَعَته ـــ مئذنته ـــ اخت مئذنة (الكُتُبِيَّة) فــي مراكش ، ومئذنةِ (الخيرالــدا) في اشبيلية ، بالاندلس ، وكلُّها مــن اعماله الخالدة . وامــا مسجد حسّان فقد دَرَس ؛ ولم يبق منه اليــوم غير انصافِ اعمدةٍ مزروعة فــي الارض ، يقوم بينها جزءٌ من المئذنــةِ يَستدعي الاشفاق حين يتذكَّرُ المــرءُ ان شقيقتَيها في مراكش واشبيلية لا تــزالان قائمتين تتحدّيان الزمان . ويُقــال ان المئذنة لم تكمل ، مثلمــا كملت شقيقتاهــا .

وفي الطرف الغربي مــن المدينة تقوم (قصبــة الاوداية) ؛ وهي اخـــتٌ لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقيــةٍ الى اليوم في الأندلس ، تشـابهها في البنــاء الداخلي ، وفي الأسوار ، وفي كــلّ شيء . وكان قد انشاها ملك الموحّديــن الأوّل عبد المؤمن بــن علي سنة ١١٥٠ م. وهي اصل مدينــة الرباط .

وفي جهة اخرى من المدينة تقوم بقايا مدينةٍ رومانية تُدعى (شيلا) ، وقد اتّخذها ملوك المَرينيّين مَقبرةً لهم ، واحاطوها باسوار عالية ، واقاموا فيها مسجدا ومئذنة . وكلّها ما تزال قائمة هناك الى اليوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الاّ في عهد الاسرة العَلَويّة التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيد ، في القرن السابع عشر الميلادي — وكانت في اول عهدهم مَقَرًّا مؤقتا لملوكهم ، ثم تحوّلت الى عاصمة رسمية لهم في زمن الملك يوسف ، والد الملك محمد الخامس ، وَجَدِّ الملك الحسن الثاني . وكانت عاصمتُهم من قَبلُ هي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مدنٌ اخرى عواصم للمغرب ، فالعاصمة هي (وليلي) مَرّة ، وحينًا مراكش ، وحينًا آخر مكناس ، او فاس . واحيانا كانت المدينةُ الواحدة تتحوّل مِرارًا الى عاصمة ، مثل مدينة فاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَنَاوَبَتْ على المغرب كلّه حكوماتٌ متعددة : مِن عهد إدريس الأول ، حفيد الرسول ، الذي لجا الى المغرب في القرن الثامن الميلادي ، هربًا من بطش هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وأسّس هناك الدولة الادريسيّة ، اول مملكة مغربية اسلامية ، وقد استمر حكمها نحو قرنين من الزمن . ثم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحدين ، فالمَرينيين ، فالوَطّاسيين ، فالسعديين ، واخيرا الدولة العلوية الحاكمة الى اليوم . وعَرَفَ المغربُ الحكم الاجنبي فترة من تاريخه الحديث ، وكان حُكمًا استعماريًّا مزدوجا : فهو اسبانيّ في الشمال والغرب ، وفرنسيّ في الوسط كلّه ، الى ان جلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملك المغرب اليوم . ولم يبقَ من المغرب في ايدي الاسبان غير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعد ان خرج الاسبان اخيرا من الصحراء المغربية ، على الساحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، ومــن بعدهم الموحّدون ، ثــم المرينيّون قد حكموا الاندلس ، وجعلوا منها جــزءاً من دولة المغرب . وفي اواخــر العهد المرينيّ وبداية العهــد الوطّاسي خَرَجَ العرب مــن الاندلس ، فكان من الطَبَعيّ جــدًّا ان يلجأوا الى الشمال الافريقـــي ، ويُنشئوا فيه مُدناً وقرى ، كان منها فـــي الشمال تِلمسان وتَطوان ، وفي الوسط سلا ــ وتلمسان اليوم مــن الجزائر ــ .

هــذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغــرب والأندلس ، ومن حيث الآثــار العديدة الباقية اليوم في مدينــة الرباط ، بمّا له اشباهٌ كثيرة فــي الاندلس .

امّــا الطراز الاندلسي في البنــاء والزخرفة ، فان في الرباط منه الكثير ممّا يُدهش النظــر ويُبهج النفس . وانــت حين تصل الى مئذنة حسّان ، تجد الــى جانبها ، وعند طَرَف الأعمــدة الباقية من جامع حسّان ، بنــاءً من افخم الابنية وابهاها ، هــو ضريح الملك محمــد الخامس ، والــى جانبه مسجد محمــد الخامس كذلك . والبناءان آيتان من آيات الصناعة الاندلسيـــة الحيّة المتطورة في المغــرب ؛ واقصاهما الى الدهشة والانبهــار بجمال صناعته الاندلسية هــو الضريح ذو الطابقين ، بقُبّته العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفَنَّنَ فيها الصُنّاع حتى لم يَبْقَ بعد فَنِّهم فــنٌّ في زخارف الزلّيج والمقربصات الرائعــة . وانت تقف تحت قُبَّتِــه ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لــم تَعْرِف عصورُ الاندلس لهــا مثيلا ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر جَنّــة العريف ، وجامع قرطبة ، وقصر اشبيليـــة ــ وكلّها من عجائب الدنيــا في جمال الصناعة الزخرفيــة والهندسية الاندلسيــة ــ .

والجديد في ضريح محمــد الخامس هو إدخال الذهب فــي الطراز الاندلسي باشكال لــم تعرفها زخارف الاندلس مــن قبل ، وبكثرة تَخْلب النظر ؛ وكذلك التَفَنُّن فــي الأشكال الزخرفية الأخرى غــير المالوفة كذلك . وتُحِسُّ وانــت في داخل الضريح ، ثُــمَّ في المسجد مِن بَعده ، بانك تودُّ لو تُطيل البقــاء ، مستمتعًا بروعة الصناعة وجمال الفــن .

وتستعيد في خيالك كلَّ قصور الاندلس ومساجدها ومآذنها ، فتحسُّ بعظمة الأندلسيين الذين خَلَقوا هذه الفنون المدهشة : من دِقَّة القِطَع الزليجية الصغيرة ، ورهافة الفن في ترصيعها ، وجمال النقوش المصنوعة منها ، ومن رهافة المقربصات الجبصية والخشبية التي خَلَقَتْها عبقريّةُ الفنان الأندلسي . ثم يأخذك العجب من بقاء هذه الصناعة العجيبة مزدهرة ، ومن تَطَوُّرها وتحديثها في مدن المغرب كلِّها الى اليوم ، وحفاظ المغرب على أن تظلَّ الاندلسُ حَيَّةً فيه ، لا يمحو جمالها الزمان ، بهندستها المعمارية ، وزخارفها ونقوشها ومقربصاتها ، وكذلك بموسيقاها ، وغنائها ورقصها .

وتَخْرُج من الضريح والجامع لتتجوَّل في انحاء مدينة الرباط ، فتدهشك القصور الملكية ، بزليجها الأخضر الجميل في السطوح ، وفي الجدران الخارجية ، وفي ظِلَلِ الحدائق الفسيحة : قصر المَشْوَر ، وقصر السلام ، والقصر القديم الذي بناه محمد بن عبد الله العلوي . وهذه القصور الملكيّة تُحَفٌ روائع من الصناعة الأندلسية الطراز ، تَفَنَّنَ فيها الصُنَّاع المغاربةُ فأبدعوا غاية الابداع .

ثُمَّ تمضي الى جامع السُنَّة ، وجامع مولاي يوسف ، وهما متقاربان في المكان ، فتقف متأمِّلاً جمال الزليج الاخضر الذي يُغطّي سطوحهما . وتمضي الى الداخل ، فتُدهِشُك البساطة الأنيقة في رهافة الصناعة الاندلسية — وللبساطة جمالُها ايضا متى كانت من صُنع يَدٍ فنّانةٍ بارعة — .

ولا يقتصر الطراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بل تَجِدُه كذلك في بعض الفنادق ، وأَخُصُّ بالذكر (فندق حسّان) ، في وسط المدينة ، وهو تحفة فنية رائعة من الداخل ، بجمال الصناعة الزخرفية الاندلسية ، التي تستريح اليها النفس ، ويستريح النظر .

- ٣ -

مــراكش

ونمضي مع خريطة المغـــرب انحدارا الى الجنوب ، فنصل الى مراكش ، مدينــة النخيل ، او المدينة الحمراء ، كمــا تُدْعَى احيانا .

مئذنــة الكُتبيّة فــي مراكش

وهي تُدعَى كذلك لانَّ لـــون بيوتها الخارجي احمر ، بعكس مــدن المغرب الأُخرى وقراه ، وكلُّهـــا تقريبًا مطليَّةٌ من الخـــارج باللون الابيض ...

ومثلها كذلك الجزائر وتونس وليبيا — وتكثر في المدينة ومن حولها اشجارُ النخيل الجميلة . وبيوتها صغيرة وقليلة الطوابق .

هذه المدينة بناها أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ. ١٠٦٢ م. واتخذها عاصمةً لدولته بَدلاً من العاصمة فاس . ومِنْ بَعْدُ ظلّت مراكش عاصمةً للموحّدين ، ثم كانت عاصمةً كذلك للسعديين في القرن السادس عشر للميلاد ، العاشر للهجرة . واتّخذها ملوك العلويين الأولون كذلك عاصمةً لهم ، الى ان انتقلت العاصمة الى الرباط في عهد مولاي يوسف ، والد محمد الخامس ، وَجَدّ الحسن الثاني . وقد تَرَكَتْ كلُّ واحدة من هذه الدول المغربية آثارا من آثارها في هذه المدينة العريقة .

وجدير بالذكر انَّ معظم أعلام الفلسفة والطبّ من الاندلسيين ، من عهد المرابطين الى اواخر عهد المرينيين خاصة ، قد انتقلوا من الاندلس ايقيموا في مراكش او فاس ، في رعاية ملوك هذه الدول الثلاث وامرائها . وفي ذلك يقول عبد الله كنّون في كتابه (النبوغ المغربي) : « فأبو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايغ ، والفيلسوف والطبيب والموسيقي ، هو ممن أظلّتهم دولةُ المرابطين ، وخَدَمَ رجالها بعلمه وفنه ؛ وابو الوليد ابن رشد ، وابو بكر ابن طُفَيل ، وابناء زهر ، هُم ممَّن نبغوا في اعقاب عصر المرابطين ، وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليه . واعلامُ الفقه والتصوف ، مثل ابن رشد الكبير ، وأبي بكر ابن العربي ، وابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، هم من رجال عصر المرابطين او عصر الموحّدين » (١) .

وفي مراكش ضريح بسيط متواضع ليوسف بن تاشفين ، على مقربة من جامع الكتبية ، أُقيمَ في عهد الملك محمد الخامس فقط ، في حين يقوم ضريح خصمه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمد بن عبّاد غير بعيد عنه ، في أغمات ، في فخامةٍ لا يعرفها ضريح ابن تاشفين .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، الجزء الاول ، ص ٦٦/٦٧ .

وكانت اغمات عاصمة المرابطين قبل ان يبني يوسف بن تاشفين مدينة مراكش .

وجدير بنا أن نشير ههنا الى أن ابن تاشفين كان قد دخل الى الاندلس بجيوشه مرّتين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ؛ الأولى لصد غارات الجيوش الاسبانية عن ممالك الاندلس ، ولا سيّما عن مملكة اشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عباد ، والثانية بعدها بقليل ، لكي يضمّ الاندلس الى المغرب ، ويبسط سلطانه على العدوتين . وفي هذه المرة الثانية سيق المعتمد مكبّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى اغمات ، حيث بات المعتمد في ذلّة الاسر ، وخلّف لزوجته وبناته مذلّة التشرّد والفاقة . ثم ماتت زوجته ودفنت الى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابن عبّاد من مدخل ، تقوم الى يساره غرفة فيها سجلّ للزائرين . ويفضي المدخل الى باحة مكشوفة ، ثم الى غرفة فيها قبرُ ابن عبّاد وقبرُ زوجته الى جانبه . وعلى الجدار الأيمن والجدار الأيسر ابياتٌ نظمها الشاعر الوزير لسان الدين ابن الخطيب حين زار قبر المعتمد . وهذه ابيات منها :

قبرُ الغريبِ ، سَقاك الرائحُ الغادي حقّاً ظفرتَ باشلاءِ ابنِ عبّادِ
كفاك ، فأرفُقْ بما استُودعْتَ مِن كَرَم رَوّاكَ كلُّ قطوبِ البَرقِ رَعّادِ
ولا تَزَلْ صلواتُ اللّهِ دائمةً على دَفينِك ، لا تُحصَى بِتَعدادِ

وكان ابنُ الخطيب قد رثى ابن عبّاد بابياتٍ اخرى حينما وقف على قبره ، فقال :

قد زرتُ قبرَك عن طوعٍ بأغماتِ رأيتُ ذلك من اولى المهمّاتِ
لِمْ لا ازورُك يا أندَى الملوكِ يداً ويا سِراجَ الليالي المدلهمّاتِ؟
وانتَ مَن لو تَخطّى الدهرُ مَصْرَعَهُ الى زماني لجادتْ فيه أبياتي

لكانما شاءت الأقدارُ أن تُقارِبَ بين ضريح السلطان الغالب ، والملك الشاعر المغلوب ، الذي كان له من دنياه السلطان والشعر

معًا ، مُخَلَّد بالشعر ، وظلّ أغرودةً في فـم الزمان ، وظلّ قبره مَحَجَّةً الزوّار ممَّن يعشقون الفـنّ والشعر . وبِجَمْع الضريحين المتقاربين ، اجتمعَ المغربُ والأندلسُ اجتماعا أبديًّا ، كان الضريحان رمـزًا خالدًا لـه وعنوانـا .

المدرسة اليوسفية في مراكش

والى جانب ذلك يجتمع المغرب والاندلس في آثار اخرى باقية في مراكش ، لعَلّ اهمّها جامعُ الكتبيّة ومئذنتُه ــ او صُومعته ــ اخت مئذنة اشبيلية الشهيرة باسم (الخيرالدا) ، ومئذنة حسّان في الرباط .

تمتاز مئذنة الكتبية ومئذنتا الخيرالدا وحسّان ، بأنّ الصعود اليها ليس على سلالم ، بل في طريقٍ عريضة مُتَلَوّيَة ، تنتهي كلّ دورة منها بِشُرُفات من جميع الجوانب ، تُطِلّ على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعدُ اعلى المئذنة ، واطلّ من شرفاتها ، انبسطت تحته عينيه المدينةُ كلُّها كما تنبسط راحة اليد . ويُقال إن المنصورَ قد اراد من بنائها بهذا الشكل ان يكون في وُسعه الصعودُ الى اعلى المئذنة على صَهوة جواده . هذه المِيْزَةُ هي اهمُّ ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخيرالدا يبلغ عُلوُّها اكثرَ من خمسة وسبعين مترا ، وعلوُّ الكتبيةِ اثنان وستّون مترا ، ولا ادري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بُقِيَّةُ مئذنة فقط ؛ اما من حيث الشكل الخارجيّ فان الخيرالدا ، في اشبيلية ، تُحفَةٌ رائعة من آيات الفنّ المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد اقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أُطيلَ الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جدًّا ، وكلُّها جدير بوقفات طوال مُشْبِعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابرُ السعديّين ، وفي وسطها قبرُ احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدُهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائقُ الأُوكدال الفسيحة الواسعة الارجاء ، وقد انشاها الملك محمد بن عبد اللّه العَلَويّ . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبِرْكَتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط إحداهما مكانٌ لجلوس جوقةٍ موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة بِبِرْكة القيروان في تونس . وهنالك ايضا قصرُ البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، من ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدمُ اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كلّه ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير عليّ بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم ابيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسيّ الطراز ، سواءً في هندسة البناء ، ام في المُقرْبَصات الخشبيّة السوداء ؛ وهذه اوّلَ مدرسة اندلسية الطراز شاهدتُها في حياتي ، ولم أرَ مِن قبلُ مثلها في الاندلس . اما المغرب فتكثر فيه

مقبرة السعديين في مراكش

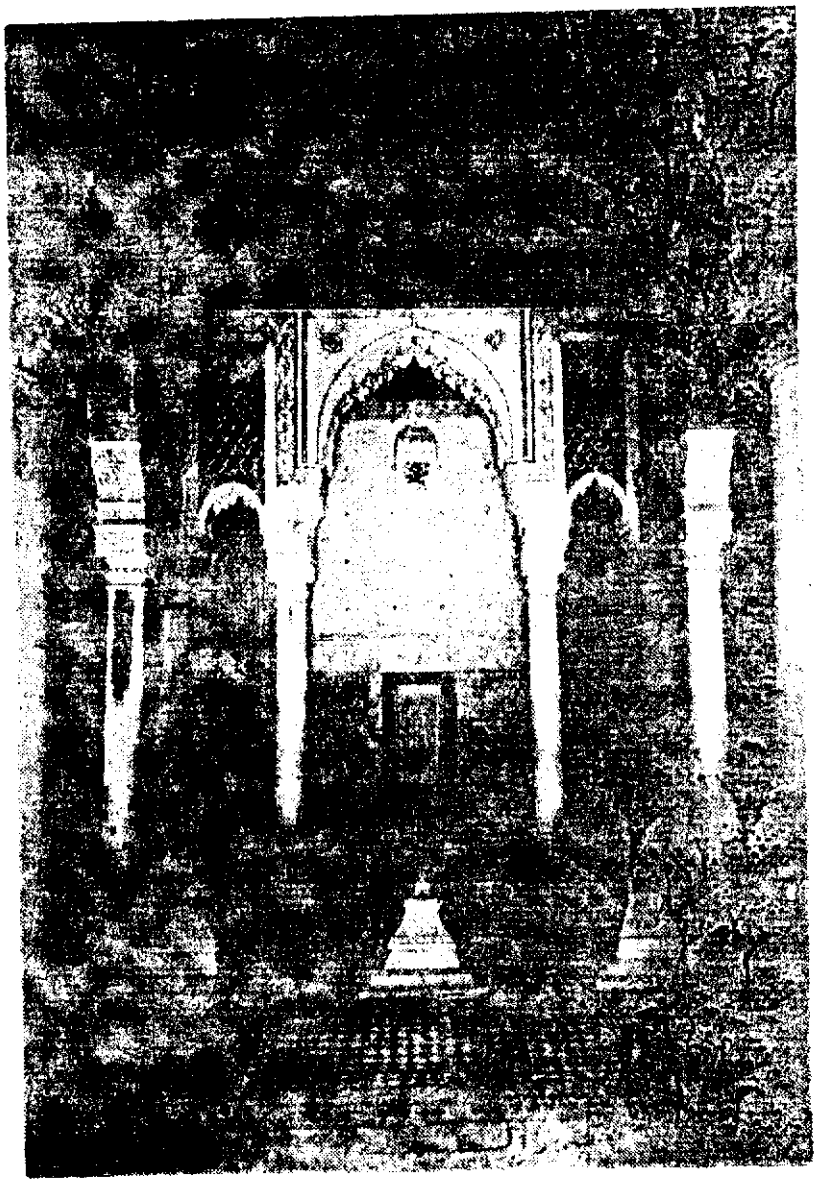

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشاه الملك ابو عنان المُريني ، وتُدعَى مدارسه كلها باسمه : (المدرسة البوعنانيّة) . وقد شاهدتُ من المدارس البوعنانية ثلاثا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهي وسواها من المدارس القديمة متشابهةً في طرازها ، وغُرَف الطلّاب فيها اشبه

بالرنزانات ، وكلّها تطِلّ على بهو اوسط مفتوح ، وتقوم في الطابق الثاني من المدرسة .

واما الزخارفُ الاندلسيَّةُ المدهشة فيجدها الزائر في قصر (الجلاوي باشا)،المهجور الآن،بكلّ ما كان فيه من اثاث ورياش فاخرة ، كلّ اقمشتها من الدِمَقْس الحُرّ . وكذلك في (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقة،بطرازها الاندلسيّ الجميل الممتع . في هذين القصرين يعود المرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جوّ اندلسيّ صرف ، ولكنّه جوّ اندلسي حديث متجدد .

— ٤ —

مدينة فاس

يا فاسُ،يا جَنَّةَ الآمال باسمةً وجنّةَ المغرب الأقصى لِما رَحُبا
ما زال جامِعُكِ المعمور مُفخرةً للضاد ، مُؤَوّي طَوْقَ المِنّةِ الرِقَبا

(محمد الجيوري)

وتنطلق من مراكش مصعّدًا في الأطلس الأوسط نحو الشمال ، حتى تصلَ الى مدينتين عريقتين ، هما مكناس وفاس . ولكليهما تاريخ طويل مجيد من تاريخ المغرب السياسيّ والفكريّ ، وصِلاتٌ متينة بالأندلس وعرب الأندلس في القديم ، وبفنون الأندلس في العصر الحاضر .

ولستُ اقف طويلا عند مدينة مكناس ، بل ، اكتفي منها بذكر القليل من آثارها الباقية ، واهمُّها : قصر اسماعيل بن علي بن الشريف ، راس الأسرة العلوية ، ومَسجِدُه الأندلسيّ الطراز ، ذو الألوان الجميلة الشبيهة بالوان قصر إشبيلية ؛ وكذلك المدرسةُ البوعنانية ؛ وهي احدى المدارس التي انشاها ابو عنان ابن ابي الحسن المَرينيّ . ويضاف اليها قصرُ الجامعيّ ، الاندلسيُّ الجميل .

وأمّا مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهو الذي وضع حجر الاساس للمدينة في غرّة

ربيع الاول عـــام ١٩٢ هـ. ، الرابع من يناير ٨٠٨ م. ثـم نَقَل اليها عاصمة ملكه من مدينـــة (وليلى) أو (فولوبوليس) التـــي كانت عاصمة ابيـــه . وسَرعان ما توافد عليه العـــرب من إفريقية (تونس) ومن الأندلس : فجاءه خمسمئة فـــارس من افريقية ، ومئـــات من الاسر

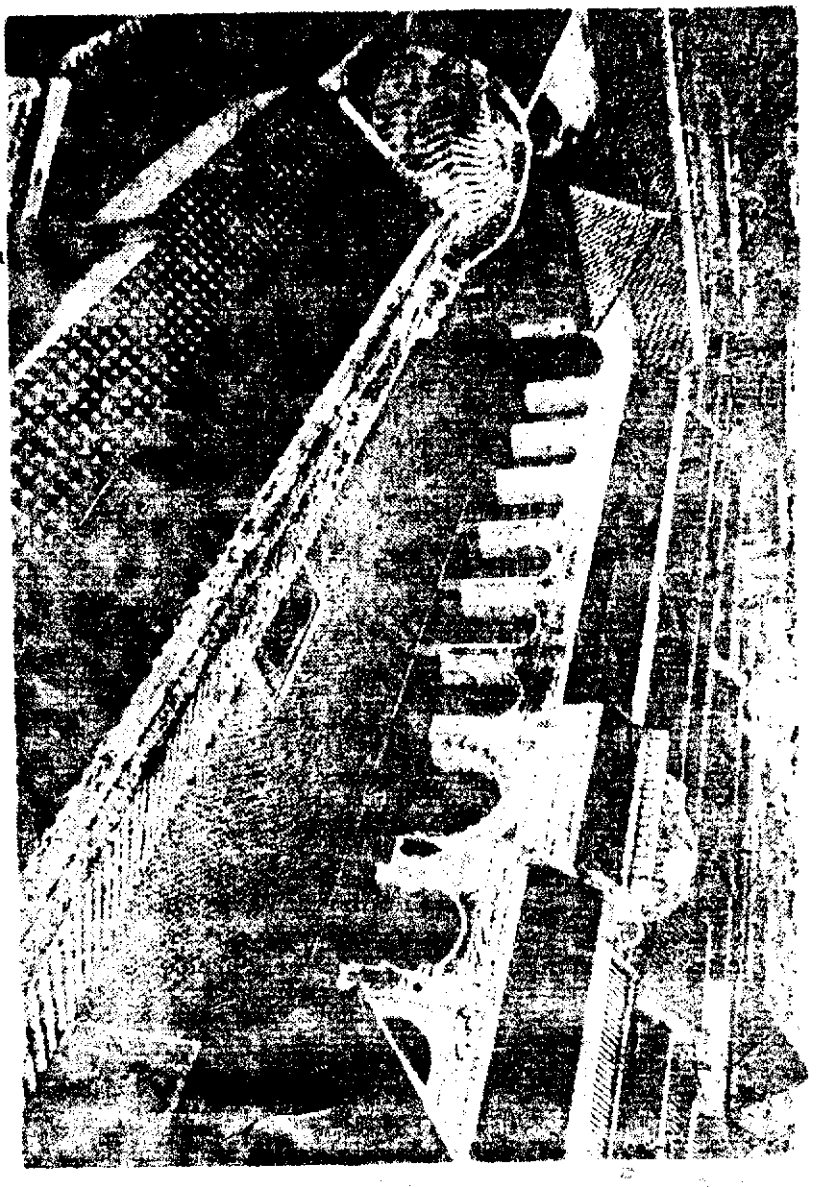

صحن جامع القرويين في فاس ويبدو سقوفه الزليجية

الأندلسية . فجعل المدينـــة قسمين ، دعا احدهما (عـــدوة الأندلس) — وهي القسم الشرقيّ من المدينة — وأنزَل فيـــه الأُسَر القادمة مـــن الأندلس ، ودعـــا القسم الثاني (عـــدوة القرويين) — وهي القسم الغربيّ — وقد أتخذ منـــه الملك ادريس مَقرًّا لـــه .

وظلت فاس عاصمة الدولة الادريسية ، التي قامت في المغرب على يد الامام ادريس الاول ، بعد هربه من المشرق خوفا من بطش الرشيد به . غير أنّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموما في عاصمته (وليلى) على يد الشماخ ، بتدبير من هرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المرينيّون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نقلوا العاصمة من مراكش الى فاس من جديد ، واضافوا الى المدينة قسما دعوه (فاس الجديدة) واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار ايضا . وظلّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوطّاسيّين ودولتهم القصيرة العمر .

وكثُر نزوحُ الأندلسيّين الى فاس ، وقد حَملوا معهم مظاهر حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك اثره الكبيرُ جدًّا في التقدُّم الفكريّ والحضاريّ الذي عرفته فاس . ومِمَّن وَفَدوا عليها ومارسوا علومهم وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والفيلسوف ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، والكاتب جُزَيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زمرك ، وغيرهم ، وكلُّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحّدين او المرينيّين . والمؤلم حقًّا انّ كلَّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُمِيَ بتهمة الالحاد والزندقة ، وبعضُهم مات حرقا ، او مات مسموما . ولا يزال قبر لسان الدين بن الخطيب بارزًا أثرُه خارج أسوار مدينة فاس .

وما تُذْكَر مدينة فاس الا ذُكِرَ معها جامع القرويين ، وكان دائما في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تَخَرَّج كبارُ علماء البلاد المغربية على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تَحَوَّلَ اليوم الى جامعة عصرية . وهذا الجامع انشأتْه في القرن التالث الهجري ، التاسع الميلادي ، السيدةُ فاطمة أمّ البنين الفِهْريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبح جامعة ، هي اقدم جامعات العالم على الاطلاق ، واصبح مصدر إشعاع فكريّ إسلامي غَمَرَ بلدانَ المغرب والأندلس ، وتوافَدَ عليه العلماءُ وطُلاّب العلم من كل صوب . وبجامع القرويين صارت فاس عاصمةَ المغرب العلميّة الى اليوم . وهو اول

مِيضاة جامع القرويين في فاس

جامع تقيمه سيّدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّه ؛ وكُلُّ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ ذلك الحين كانت تتبارى في دعم القرويين ، وإغداق المال عليه ، وإجراء التوسّعات التي يتطلّبها ، وتوفير العلماء له ، (والمدارس) العديدة لايواء طلاّبه وتدريسهم .

أمّا اثر الاندلس في القرويين فنُطالعُه في كلّ مكان من هذا الجامع العريق : ففي المحراب نرى الطرازَ الاندلسيّ بزخرفه زخرفة بديعة ؛ وفي صحن الجامع تُدهِشُنا قِطَع الزلّيج — او الفسيفساء المُلوَّن — البديعة الألوان تُغطي الأرضيّة كلّها ، وتزخرف المنشآت الجميلة ، والجُدران جميعَها . وِمن فوق زلّيج الجدران والأرضيّة تتدلّى المُقَرْبَصات والنقوش الجِبصيَّة والخشبيّة المدهشة ، تفنَّنت فيها ايدي الصُنّاع الفاسيّين الذين اخذوها في الأُصل عن الاندلسيين ، ومضت تبدع فيها ما شاء لها الابداع . وعلى طرَفَي الصحن تقوم ظُلَّتان — سقيفتان — جميلتان ، تُزَيِّنُهما السقوف الخشبية البديعة في نصفهما الأعلى ، والأعمِدَةُ الرفيعة الدقيقة من اسفلهما ، والزلّيج الأخضر البهيج في سطوحهما . وعلى الجدران قِطَعٌ صغيرة من الفسيفساء الزلّيجية البهيّة الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عِدَّةُ مدارس قديمة ، اندلسيةِ الطراز ، نَذكر منها : البوعنانية ، ومدرسة النجّارين ، والعطّارين ، والصَفّارين ؛ وهذه كلُّها من العهد المَرينيّ في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وهنالك ايضا مدرسة الشَرّاطين ، وهي من عهد الأُسرة العَلَوية . وكلُّ هذه المدارس وسواها من المدارس القديمة في مختلف مدن المغرب هي من طراز المدارس التي نشأت في الأندلس من قبل ، والتي جَعَلَت من الأندلس منارةَ علمٍ وحضارةٍ قَبْلَ ان تقوم النهضة الحديثة في اوروبا .

وتَتَجلّى الصناعة الأندلسية في كل مكان من مدينة فاس : في المساجد ، والزوايا ، وفي المدارس ، والأضرحة . ومن أهمّ الزوايا في فاس زاويةُ مولاي إدريس ، مؤسس المدينة ؛ ويتبدّى جمالها في زلّيج سطوحها وأفاريزها ، وزخارف جدرانها وارضيّتها .

غير ان أحدثَ الاعمال الزخرفية الجميلة المتطوِّرة يَبْهَرُ الزائر في (فندق قصر الجامعي) ، وهو فندقٌ كبير حديث ، بعضُه كان قصرًا قديما من القرن التاسع عشر لأُحد كبار اغنياء المغرب يدعى (الجامعي)

ـ وله قصور اخرى في مكناس وبعض المدن المغربيّة الاخرى ـ ثم اضيفت اليه اجنحةٌ حديثة ، واستُغلّت حدائقه الفسيحة ، وَزُيِّنَ بالنقوش والزخارف الاندلسية المُحْدَثة ، فجاء قطعةً مدهشة من جَنَّة

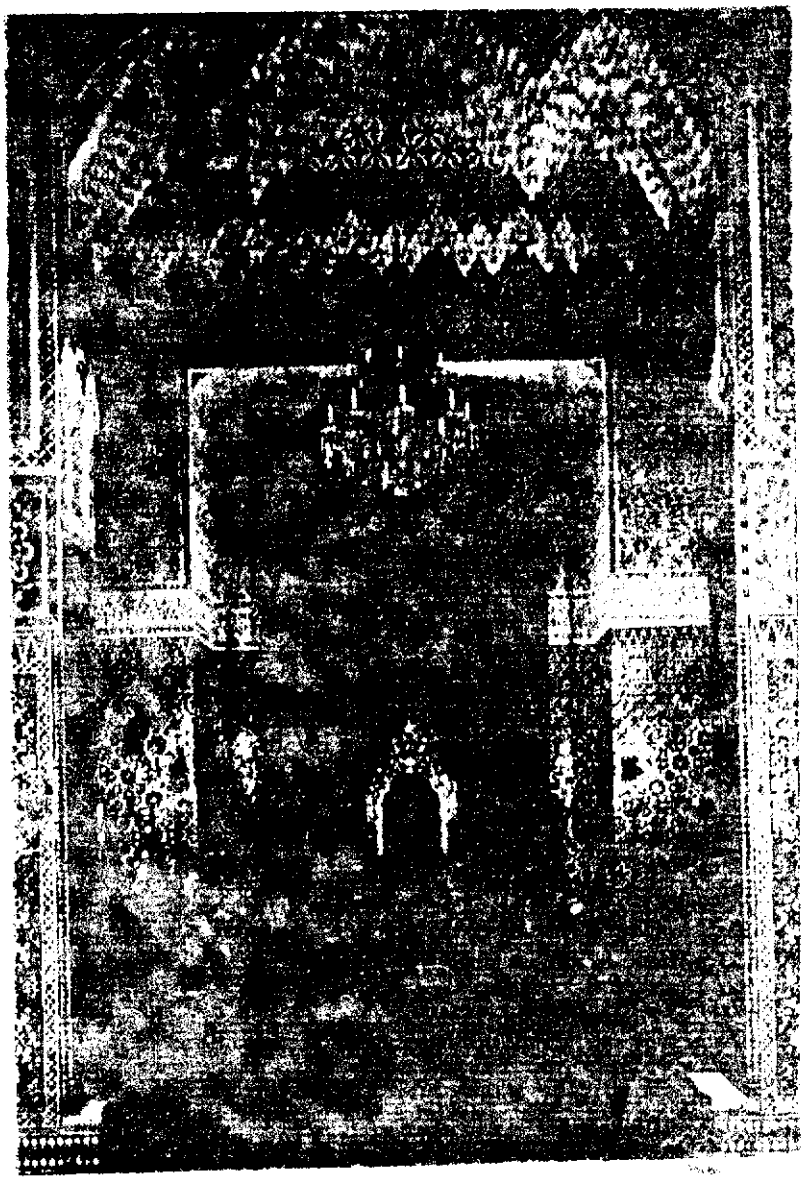

قاعة العرش في القصر الملكي في تطوان

الأندلس ، يُعِزُّ مثيلها في قصور غرناطة وإشبيلية ؛ وفي فسحاته الواسعة ، حَوْلَ بِرْكة الماء الكبيرة في حدائقه ، تُقام حفلات الغناء والرقص والموسيقى الأندلسية ، فيعيش الساهرون في جوٍّ اندلسيّ خالص ، وفي مُتعةٍ للعين والنفس لذيذةٍ حالمة .

لقد امتزج تاريخ فاس بتاريخ الأندلس في اشياء كثيرة : امتزج بالأُسَر الأندلسيّة العديدة التي نَزحت الى المدينة منذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسة العمرانية والنقش والزخرفة ؛ وامتزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذةً وطلّاباً وزوّاراً ؛ وامتزج في قصور الملوك والحكّام بمن وفد عليهم من أعلام الأدب والشعر والفقه والعلم من الأندلسيين ، ولا سيما في عهد المَرينيّين وسُلطانهم الأشهر ابي عنان . وقد ذكرنا في ما تَقدّم اسماءَ بعض هؤلاء الأعلام .

وهناك مظاهر اخرى كثيرة من امتزاج الأندلس بمدينة فاس ، نَجِدُ بعضها في الطُرُقات الضّيقة التي تسير في وسط المتاجر المسقّفة على الجانبين، لتُبْرِزَ اعمال النّسّاجين والصاغة والصُنّاع الفاسيين البارعةَ الجميلة . ونَجِدُ بعضها كذلك في طراز الأسوار ذات النُتوءات المُدَبَّبَة .

والواقع ان مدينة فاس من اكثر المدن المغربية تأثّرًا بالأندلس وبفنون الأندلس ، وَمِن اكثرها احتضانا لفنون النقش والزخرفة والبناء الأندلسية .

— ٥ —

تَطْوان

تقوم مدينة تطوان — أو المدينة البيضاء ، كما تُدْعَى ايضا — على سفح تل (دَرْسَة) الى الجنوب من سَبْتة . وَمِن حَولها يَسقي وادي الحلو — ويُدعى ايضا وادي مَرْتَل — بساتينها الجميلة المحيطة بها . وقد بَنَى هذه المدينةَ المهاجرون الذين جاءُوا من غرناطة في ايامها الاخيرة ، وعلى راسهم ابو الحسن المنظري . ثم لَحِقَ بهم غيرهم ممن اضطرّوا الى النزوح عن الأندلس . وقد حافَظَت هذه الأسَر النازحة على أسلوب حياتها الأندلسية ، بحيث يُخَيَّل اليك ، وانت تدخل الى تطوان ، انك تَدخُل الى مدينة اندلسية . والواقع انني هناك رَجَعَ بي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنوب الأندلسي ، بشكل خاصّ ، وشَعَرْتُ بانني قد عُدتُ اليها من جديد — وكان عهدي بزيارة رُنْدَة قريبا — .

وتَطوان هي العاصمة العلميَّة في الشمال المغربي ، واللغةُ الاجنبية التي يتكلم بها التطوانيون هي الاسبانية ، وبيوتُها تَعْكس جمال الطراز العمرانيّ والهندسيّ الأندلسيّ .

جوقة موسيقى اندلسية في قصر البريشة في تطوان

وقبل ان امضي في الحديث على المدينة وطابَعِها الاندلسي ، أوَدّ ان أذكر انني حرصتُ هناك على زيارة مؤرخِ تطوان وشيخ علمائها ، الاستاذ الحاج محمد داود ، صاحب (تاريخ تطوان) ، الذي يقع في اربعةَ عشر مجلدًا ضخما ، سِتَّةٌ منها مطبوعة ، والثمانية الأخرى

تنتظر الطبع ، يُضاف اليها اربعة مجلدات ضخمة اخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، ممّا يصل بتاريخ تطوان الى ثمانية عشر مجلّداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمد داود في تلك الزيارة .

ان روح الاندلس ما تزال تعيش مع الحاج محمد داود ، متحدّرة اليه من اجداده الذين نزحوا عن غرناطة . ومنزلُه قطعة فنّية من الأندلس : بتنظيمه الهندسي ، وبنقوشه وزخارفه ، وفُرُشه واثاثه ، وجدرانه وسقوفه ؛ ولأوّل مرة ، وفي منزل الحاج محمد داود ، رايت طراز المخادع الاندلسية « بالسرير العالي » والستائر المصنوعة من الدِمَقْس الأصليّ الجميل ، ورايتُ كيف يكون (البيت الأندلسي) بفراشه على سُطيحةٍ مرتفعة عن الأرض ، وبمساندِه المستديرة الطويلة المغطّاة بقماش حريريّ زاهي الالوان . كلّ ما في منزل الحاج محمد داود يَنقُلك الى الأندلس ، فتعيش مع التاريخ الزاهي الحزين الذي مضى .

ومثل منزل الحاج محمد داود كذلك منازل عديدة اخرى . أهلها كلّهم من ابناء المهاجرين الأندلسيين ، ولم يستطيعوا التخلّي عن أسلوب الحياة الاندلسيّة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد السلام الصَفّار ، مدير مدرسة الفضيلة للبنات ، كما زرتُ مدرسته ايضا ، فرايتُ في كليهما ما يُبهج النفس والنظر من روعة الطراز الأندلسيّ في كلّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائقُ العامة في وسط المدينة ، مِن مثل ساحة الحسن الثاني ، وحديقة (روضة العُشّاق)، هي ايضا قِطَعٌ من جِنان الأندلس وساحاته العربيّة القديمة . وحين تَدْخُل الى حديقة (روضة العُشّاق) تجد في وسطها ظُلّةً — سقيفة — جميلة لجلوس المتنزّهين ، سَطحُها من الزِلّيج الجميل المألوف جداً في الأندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بِرْكة صغيرة مستطيلة ، على جانبيها نوافيرُ رفيعة تنفث اقواسا من الماء الى وسط البركة ، فيعود بك الخيال الى (بركة السماقية) في قصر جَنّة العريف ، في غرناطة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسطها ظلة انيقة كذلك ، تقوم على اعمدة دقيقة ، تذكّر الزائر بدقتها ، ولطفها ، وجمال هندستها ، وزليجها ، وزخارف ارضيتها ، بكثير مما يعرف في الأندلس . الأعمدة الرهيفة الجميلة بشكل خاص ، تذكّرني بأعمدة جامع قرطبة ، وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .

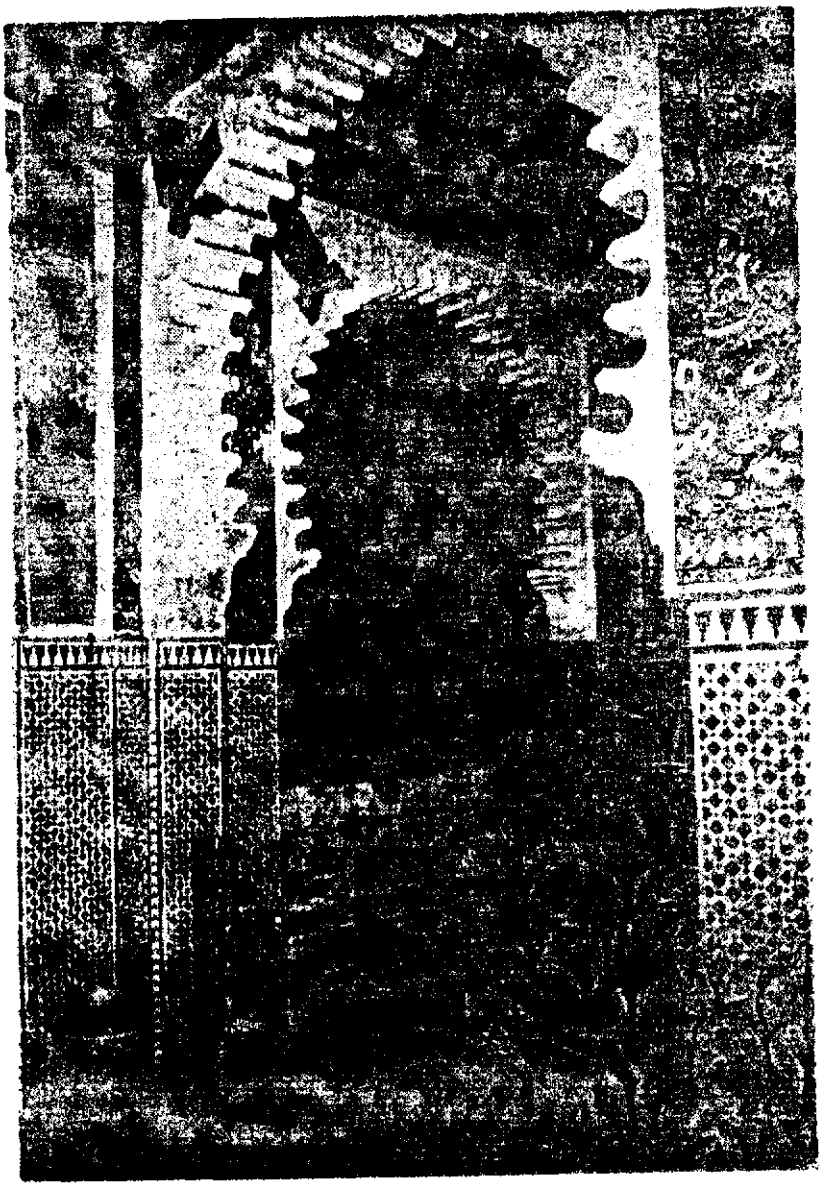

مخدع أندلسي في المغرب

ثم تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك يتجلى الفن المعماري المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأُندلسية . باشكـــال لا تُشْبَع العينُ مـــن تأملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرهـــا الدائم . وهذا الجمال هـــو بمثابة الفن البارع المدهش الذي يُتنافس فيـــه الصُنّاع التُطوانيون والصُنّـــاع الفاسيّون بشكل خاص ، ويحاول كـــلّ منهم ان يَتفوَّق فيه على زميلـــه .

هـــذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م ، القـــرن العاشر الهجري ؛ بناه القائد احمـــد الريفي ، خليفة الملك سليمـــان العَلويّ في الشمال المغربي ، ثـــم أُدخِلَت عليه مع تعاقُب الأجيـــال ترميماتٌ واصلاحات عديدة ، نَجِـــدُ تواريخها مُدوَّنة على جانب باب القاعة الكبرى ، في الطابق العُلْويّ ، واما الهندســـة الأُصليّة فلم يطرا عليهـــا ايّ تغيير . وقد عُلِمْتُ من وكيل القصر ، الـــذي رافقني في جولتي هنـــاك ، ان الصناعة الجِبْصيّة في القصر ، بِنُقوشها المُقَرْبَصَة الجميلة الأنيقة ، هي صناعةٌ فاسيَّة ، واما الزلّيج الصغير البديـــع الالوان فمزيجٌ من صناعة تَطـــوان وصناعة فاس ، وامـــا المقربصات الخشبيَّة وكلُّ النقـــوش الخشبيّة فصناعةٌ تطوانية . والفرقُ بـــين صناعة تُطوان وصناعة فـــاس في اعمال الزلّيج الصغيرة — كما قال لـــي وكيل القصر — هو انَّ الصُنّاع الفاسيّين يصنعون الشكلَ الكامل قِطعَـــةً واحدة ويشوونه في النـــار ، واما التطوانيون فيُقَطِّعونه قِطَعاً صغيرة ثـــم يَشوونها ، وبعد ذلك يُلصِقونها على الجـــدار قطعة قطعة . وكان الصانـــع التطواني الأول الذي صَنَـــع نقوش القصر يدعى (المعلم احمـــد البوري) .

وَنَنْتَقِل من القصر الملكيّ في طريـــقٍ ضَيِّقة نازلة مُتَعرِّجة — هي طريقٌ اندلسيّة صِرْف — لِنَصِل الى قصرٍ آخـــر عظيمِ الفخامة في طرازه الأندلسيّ . ذلك هـــو (قصر البريشة) ؛ وهـــو جناحان كبيران ، عاليا السقوف ، احَدُهمـــا مخصَّص لِبَيع المصنوعات البلديّـــة والمنسوجات المغربيّة المشهورة في جمالهـــا ، والثاني سياحي : تَدْخُـــل من الباب مُتَفاجَأً بمنظرٍ قد لا تَقَـــع عليه العينُ في ايّ مكان آخر : بَهْـــوٌ عريض فسيـــحُ الجوانب ، وفي وسطه بِرْكَة مـــاء صغيرة جميلة ، يَنْثُرُ الماء من نافورة فيها ؛ وَمِـــن حول البركة جوقةُ رجـــال ونســاء بملابسَ اندلسيَّة

مزركشة ، وفي أيديهم آلاتُ طرب اندلسية . وما إن يُحِسّوا بِوَقْع خُطاك عند الباب حتى يأخذوا في العزف والغناء ، وتَرقُص في وسطهم الراقصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفن اندلسي جميل أخّاذ . وعلى جوانب البَهْو العريض مقاعدُ منخفضةٌ لجلوس الزوّار والسُيّاح للاستمتاع بالرقص والغناء وبالموسيقى الأندلسية .

هذا القصرُ أقامَهُ سنةَ ١٨٩٧ الحاج عبد الكريم البريشة ، وكان سفيرًا ووزيرا وثريًّا كبيرا ، تَوَلّى مناصبَ رفيعةً في تطوان وفاس والبيضاء في عهد الملك الحسن الأول والملك عبد العزيز ؛ ويُقال إنه بنى قصرًا آخر مِثْلَه كذلك ، وجَعَل القصرين لِبِنْتَيه . وهذا القصر متعةٌ للعين والنفس ، بما فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسية .

والجديرُ بالذكر انّ في تطوان وغيرها من مدن المغرب مدارس خاصة ، يدعونها (دُور الصناعة) تُدَرَّسُ فيها فنون النقش والمقربصات والترصيع الأندلسية ، لتَظَلَّ حيَّةً متطوِّرة باستمرار . وقد دَخَلْتُ دار الصناعة في تطوان ، وتجوَّلتُ في ارجائها ، فأدهشتني الصناعات الأندلسية الجميلة التي يصنعها المتدرّبون هناك ، حتى اذا ما وَصلتُ الى القاعة الأندلسيّة في الطابق العُلْوي ، وَقَفْتُ ذاهلا أمام الجمال الباهر المتجلّي في الجدران والسقف ، وفي قِطَع الأثاث الخشبية البديعة الصنع .

إنّ كلّ شيء في تطوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحي اليك بانك في قِطْعةٍ من الأندلس العربيّة في ازهى عصورها .

* * *

وآتي الآن الى الختام من هذه الجولة السريعة ، لأقول إنّ ما قدّمْتُه في هذه الدراسة الموجَزة ليس سوى خُلاصةٍ للانطباعات التي عُدْتُ بها من جَوْلتي في مُدن المغرب . ولكنّ الواقع الذي شاهدتُه ، وعِشْتُه ثلاثة اسابيع هناك ، يَظَلُّ اكبر من الكلمات ، وهو جديرٌ بمزيد من التفاصيل ، وجديرٌ كذلك بمزيد من الصُوَر ، لِتُقَرِّبَ الوصف من الحقيقة .

لقد زُرتُ الأندلس مرّتين قبلَ زيارة المغرب : كانت الأولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراسة الفاحصة المتأنّية ، لا لمُجرَّد السياحة والنزهة . وقد امتلأتْ نفسي بما شاهدتُ هناك من روائع آثار الحضارة العربية الاسلامية الباقية الى اليوم .

وحين زُرتُ المغرب عام ١٩٧٤ — بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة — احسستُ بأن هذه الزيارة كانت ضروريّةً لكي تُكمِل بها دراستي للأندلس : ذلك لأنَّ بين البلدين ، الى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةً مشتركة باقية ، ولأنَّ المغرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخه ، وحضارته ، وفنونه .